الصورة الفنية في الشعر الأندلسي ابن خفاجة (نموذجاً)

د . علي اللافي جولق ـ كلية التربية العجيلات ـ جامعة الزاوية

المقدمة :

يُعد الشاعر الأندلسي ابن خفاجة أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح من كبار شعراء العرب عامة والأندلس خاصة ، عاش في فترة مليئة إلى حد كبير بالأحداث ، هو شاعر الطبيعة الأندلسية بلا منازع كما يراه الكثيرون من النقاد ، شاعر أجاد في مختلف أغراض الشعر خاصة شعر الطبيعة التي استهوته كثيرا فعبر عنها في صور بلاغية وألفاظ عربية فصيحة بكل روعة وحسن، استطاع بذلك أن يشَد إليه الناس من سامعين أوقارئين لديوانه ، ومن هذا المنطلق أن نسلط الضوء على شعره في الطبيعة الصامتة خاصة، وتوضيح الجوانب البلاغية الفنية في شعره وذلك من خلال نماذج مختارة من شعره لتوضيح مظاهر الجمال في شعره عامة وشعر الطبيعة خاصة وذلك من خلال التقسيمات التالية :

1- المقدمة 2- الصورة الفنية في العصر الأندلسي 3 - الصورة الفنية في شعر ابن خفاجة وتشمل :وصف الطبيعة في شعره ،الروضيات ، الزهريات ، الثلجيات ،المائيات ، ثم الخاتمة ونتائج البحث.

1: الصورة في العصر الأندلسي :

المتتبع للشعر الأندلسي يلمس بوضوح أن الصورة الشعرية تمثلت في أشكال البيان العربي من تشبيه واستعاره وكناية ، ونقرأ لأحد الباحثين في الأدب الأندلسي قوله :" إن الصورة الشعرية التي شدت انتباه الشعراء الأندلسيين واستولت على ألبابهم هي التي أخذوها من تغزلهم بالمرأة أو من وصفهم للخمر أو من الإنسان بصفاته الجسمية أو النفسية "(1).

ويستطرد قائلا :"نجد بعض الصور في الشعر الأندلسي اشُتقت أجزاؤها من الطبيعة ... وبعض الصور اتخذوها من الحيوانات والطيور ، وصفات الممدوحين ، والمرثيين ، والشاعر الأندلسي كان يستمد جل عناصره من مخزونه الثقافي ، أو من الحياة الجديدة التي تفاعل معها وتأثر بمظاهرها "(2).

ونختار من ديوان ابن زيدون (ت463هـ) هذه الأبيات المعبرة التي توضح صورة من الصور الإنسانية والانفعالية وهي صورة الغربة والبعد عن الوطن والأهل يقول (البسيط):

هل تذكرون غريباً عاده شجن — من ذكركم وجفا أجفانه الوسن

يخفي لواعجه والشوق يفضحه — فقد تساوى لديه السر والعلن

يا ويلتاه أيبقي في جوانحه — فؤاده وهو بالأطلال مرتهن

وأرق العين والظلماء عاكفة — ورقاء شفها إذ شفني حزن

فبت أشكو وتشكو فوق أيكتها وبات يهفو ارتياحاً بيننا الغصن (3)

هذه الأبيات وليدة تجربة مؤلمة عاشها الشاعر : فالشاعر يناجي على البعد أهله شاكياً ما يلاقي من غربة وأحزان وأرق ، وهو يحاول أن يخفي همومه ولكن الشوق يفضحه ويوضح لنا كيف تهيّج الحمامة أحزانه ، فقد أصابها من الشوق ما أصابه ، فبات يشكو فراق أهله ، وهي فوق شجرتها تنوح لفراق أليفها

وما نلاحظه في هذه الأبيات هو عناصر القصيدة بما فيها من معان وألفاظ وصور وموسيقا .

لقد رسم لنا ابن زيدون صورة رائعة موحية مؤثرة تجسد مدى المعاناة التي يشعر بها نتيجة ابتعاده عن وطنه وأهله ، اعتمد في صياغتها على قدراته الفنية فجاءت صورة متكاملة العناصر حيث نلمس اللغة السهلة الواضحة ، والألفاظ الحزينة والمعاني الشاكية ، لقد جاءت مؤثرة، لأنها وليدة تجربة إنسانية حقيقية وزاد من روعة هذه الصورة خيال الشاعر الخصب ، وكيف رسم صورته مستعيناً بكل ما حوله من طبيعة صامتة وحية ، فلا غرابة أن يتأثر المتلقي بهذه الصورة الشعرية غير المتكلفة ، توضح قدرة شعراء الأندلس على ابتكار صور جديدة مؤثرة استلهموها من البيئة الأندلسية الجميلة

2-الصورة في شعر ابن خفاجة

أولاً - وصف الطبيعة في شعره :

تفرد ابن خفاجة بالوصف والتصرف فيه ، ولاسيما وصف الأنهار والأزهار ، والبساتين والرياض والرياحين ، فكان أوحد الناس فيها حتى لقبه أهل الأندلس بأبي الجنان ، أي البساتين.

فالطبيعة إذاً عند ابن خفاجة هي كل شيء ، فقد شغف بها ومزج روحه بروحها وبادلها الشعور والإحساس ، وكان يتحدث إليها كما يتحدث إلى شخص ذي حياة وحركة (4).

فابن خفاجة من شعراء الطبيعة ولعل مزيته هي في الكثرة لا في الجدة ، وقد أكثر من صيغ شعره بألوان البيان والبديع من استعارات وتشابيه وجناس وطباق ، وقاده هذا الميل إلى التكلف ، فصعبت معانيه أحيانا على القراء ، فكان يتفاعل مع الطبيعة الأندلسية ويتأثر بها فيشاطرها همومه وأشجانه ويقاسمها مشاعره التي تفيض حباً وحناناً ، فاستعان بصورها وقاموسها وألفاظها في شتى أغراضه الشعرية ، إن ذلك التفاعل الحاصل بين الشاعر وبين المشهد الطبيعي يزيد من حيوية الفن وقدرته على التأثير ؛ لأنه يكون أكثر صدقاً في الإثارة وفي البناء والصياغة ، فلم يتخذ ابن خفاجة الطبيعة لذاتها بوصفها ونقل محسوساتها الخارجية ، وليس ذلك بمعجز له أو صعب عليه ، وهو الشاعر القدير على النظم والصياغة ، ولكنه اتخذ من الطبيعة بجزئياتها ومظاهرها ومفاتنها عنصراً مكملاً ومتداخلاً مع أشياء أخرى ... فلم يتخذها مسرحاً أو مكاناً للحدث وإنما جعلها جزءاً منه ... فأنطقها وطبع عليها صفات إنسانية ومنحها حواساً بشرية فهي ترى وتسمع وتشم ! وهي تضحك وتبكي وتفرح وتتألم (5).

إن إسقاط الحواس على الطبيعة وبالصيغة التي عرفتها بعض قصائد ابن خفاجة وبالطريقة التي تعامل معها شاعرنا لم تكن معروفة لدى شعراء أندلسيين آخرين ... كانوا يتباهون ويتبارون بمقدار نجاحهم في إيجاد صورة جميلة لزهرة أو بستان أو نهر أو تشبيه أو استعارة أو غير ذلك لمظهر من مظاهر الطبيعة التي تحيط بهم وتضم ليالي أنسهم أو مجالس سمرهم . ولكن ابن خفاجة كان يشترك مع شعراء عصره في الاستعانة بألفاظ الطبيعة وديباجتها وجمالها في أغراضهم الشعرية المختلفة ... تتسلل إلى قصائدهم لغة أو صورة أو تشبيه أو كناية أو استعارة ، فكان معجم الطبيعة طاغياً على الشعر الأندلسي عموماً بعد القرن الرابع الهجري ، فكان الإغراق في استخدام عناصر الطبيعة ومفرداتها سبباً لاتصاف الشعر الأندلسي وأهل الأندلس بعشق الطبيعة والهيام بمفاتنها والتعلق بها ... ولا نريد أن نسترسل في هذا الموضوع فنتحدث عن ولع الأندلسيين بالبيئة وألوانها ومناظرها وصورها ولكننا نريد أن نقف عن حالة فريدة وجديدة كان لها أثر كبير في الدراسات اللاحقة ؛ لأنها تشكل تحولاً كبيراً في الشعر العربي ، ألا وهو شعر ابن خفاجة في الطبيعة [6].

ووصل بين الطبيعة وبين معظم أغراض الشعر الأخرى ، وجعل مفردات الطبيعة على اختلاف أنواعها معجماً لغوياً وفنياً يرجع إليه في صناعته الشعرية؛ وربط بين الطبيعة وبين رؤيته الخاصة للحياة بما فيها من عظات وعبر ، فالطبيعة هي المعنى الذي تتفجر منه شاعريته وفي أرجائه يطوف خياله ، إنها كائن حي يحبّها وتحبّه ، يناجيها وتناجيه ، بصحبتها تطيب الساعات ، وبأفيائها تحلو رقائق العيش ، وربما كانت صرخة ابن خفاجة أصدق تعبيراً عن هيام الأندلسيين ببقعة لا يعدلون بها جنة الخلد [7]، ومهما تعددت أغراض الشاعر في شعره ، فإن الطبيعة تظل بارزة ، فإذا فرح شاركته حبورها ، فهو مغرم بأساليب البيان يستقومها من الطبيعة كموضوع وحي لا ينضب : فالطيور قيان ، وشدوها غناء ، ورجعها موسيقى ، والندى درر ، والنور عقد والورق عطاء . وتأكيداً على ذلك ، يقول ابن خفاجة في وصف الحديقة :

وصقيلة الأنوار تلوى عطفها ريحٌ، تلفَّ فروعّها ، معطارُ
عاطي بها الصهباء أحوى أحور سحّابُ أذيال السُّر سحَّارُ
والنور عقدٌ والغصون سوالف والجذع زندٌ والخليج سِوارُ
بحديقة ظل اللمى ظلاً بها وتطلعت شنباً بها الأنوار
رقص القضيب بها وقد شرب الثرى وشدا الحمامُ وصّفقَ التيارُ
عناء ألحف عطفها الورق الندى والتف في جُنباتها النوار
فتطلعت في كل موقع لحظةٍ من كل غُصن صفحة وعِذارُ(8)

نلاحظ في الأبيات السابقة أن شعر الطبيعة قد أزدهر يشكل واسع في بيئة الأندلس ومن أهم العوامل التي ساعدت على انتشاره : وفرة الأزهار، الرخاء الاجتماعي ، شغف الملوك بالطبيعة، و حياة اللهو وقد سحر الشعراء بمفاتن الأنوار فتباهوا في وضع ألوانها وأشكالها وشغفوا بمباهج الزهر ، فبقيت صوره مطبوعة على صفحات خيالية ، يتمثل ذلك في وصف ابن خفاجة حديقة اللمى .

- في البيت الأول : تبدو النوار في القصيدة كأنها امرأة فلها من صفاتها ، وتحنو هذه الأخيرة بعطفها على الرجل لترويه عطفها وحنانها ، وهنا تلوي النوار عطفها على الأرض لتحضنها بين أحضانها فتصبح بذلك كرجل يتنعم بعاطفة محبوبته ، لقد شخّص الشاعر النوار بامرأة ؛ لأنها تتميز بعطرها الأخاذ فتبدو وكأنها سرقت عطرها من الزهرة البيضاء .
- وفي البيت الثاني يحاول الشاعر دمج الطبيعة بالإنسان عامة ، و بالمرأة خاصة في جو عابق بالسعادة والراحة ، فرآها تتعاطى الخمر بين أزهار النوار ، وتبدو تلك الجارية الأخاذة ذات العينين السوداوين ، ترتدي ثوباً طويلاً ملامساً للأرض.

  إذاً ، في البيت الثاني يظهر المثلث الذي لا يتفرّق عند شاعرنا والذي يتأسس على موضوع الطبيعة والمرأة والكأس(9).
- وفي البيت الثالث : توحدت نفس الشاعر مع نفس الطبيعة توحداً ثابتاً ، وجعلت من صورها أشخاصاً حية ، تتمتع بميزات إنسانية ، وهذا الاندماج الموحد يظهر بصورة واضحة عندما يربط بين الطبيعة والمرأة ، فقد جعل النور عقداً كي تزين المرأة عنقها لإبراز جمالها ، كما رأى في الغصون المتفرعة شعر المرأة المتدلي ، واستخدم الجزع للزند كمصدر قوة وأمان ، كما أن التفاف الزهر في الحديقة يبدو كأنه سوار ، إذاً نستنتج أن السوار والزند والسوالف كلها عناصر أساسية بخاصة بالمرأة .
- في البيت الرابع : ويمثل بين المرأة والحديقة أصدق تمثيل فلو حذفنا كلمة حديقة لكان البيت يتحدث عن المرأة باللمى والأسنان البيضاء والأنوار والعيون ، فالحديقة ليست زهوراً وأنواراً تعصف بها الرياح فبقي على أوراق الأشجار ، وتعزف في جناتها العصافير إنما هي امرأة مشتاه فمها وقدَها وعطفها وزندها فبتنا تشوبنا الحيرة ، أنحن في حضرة امرأة الشاعر أم في حديقته ؟
- في البيت الخامس : كما تبدو الطبيعة وأنها في حفل ؛ ليصف ليالي أنسه في ذلك العصر من خلال الطبيعة ، وكأن الحنين يعود بالذكرى إلى أيام شبابه ومجونه .
- في البيتين السادس والسابع : والسكون عاد إلى الطبيعة بعد الحفل ، فقد حان وقت الاستراحة أو النوم ؛ لذا استعارت الحديقة الورق الندي غطاءً لها والتحفت به ، والتفت في كل جنباتها الأزهار البيضاء ، التي تحضر عند انتهاء كل حفل لتكون عربون فرح وتكريم ، وأصبحت الطبيعة

وكـأنها جنة في كل موقع منها ذكريات لاتنسى ورؤيا مبدعة ، إذاً نلاحظ في البيتين الأخيرين ، الوصف لما تبقى من عدة الطبيعة (الورق ، الندى ، النوار ، وكيف التف في جنباتها) حتى بتنا نشهد كأنها ذكرت في القرآن الكريم ، حين تحدث عن جنة عدن .

نخلص مما سبق إلى أن معظم الصور مستمدة من واقع البيئة وبخاصة صورة القضيب الذي شرب الخمر في ليالي الأنس.

ونلاحظ أن الشاعر مزج حالته النفسية بالمظاهر الطبيعية ، أي عكس نفسه على الطبيعة كما زيّنها بالتشخيص المميز ، لقد تخيل الحياة في ما لا حياة فيه ومزج الجماد أو المظاهر الطبيعية صفات إنسانية .

فنرى القضيب في حالة سكر وقد بدأ بالرقص بعد شربه الخمر ، الذي يرمي في النفس الفرح والمتعة و نسيان الواقع المزعج ، وهنا نسي القضيب واقع الجماد بعد شربه الثرى ، ثم يضيف الحمام جو الفرح إلى الطبيعة بغنائه الجميل ، وكل حفل ينتهي بالتصفيق ، وقد صفقت الأشجار عربون تهنئة ، وفي هذا الحفل أو العرس تتسابق المرأة والطبيعة على إبراز نشوتها ، يلاحظ هنا ، أن الشاعر قد صوّر لنا واقع حفلاته في ذلك العصر فكان للاستعارات دلالات حضارية وكأن الشاعر ضرب عصفورين بحجر واحد ، قد أهدى صفات تتعلق بالروح لمن لا روح له وذلك لإحياء جمال الطبيعة في عيوننا وللتأثير من جهة غير أنها بباطنها قصيدة تتحدث عن جمال الطبيعة الأندلسية ، ورقتها ، وانعكاسها على المشاعر ، وكأن الشاعر ألبسها حلته النفسية فأتت بصورة هادفة ويقول ابن خفاجة :

يا بانة ، تهتز فينانة وروضة ، تنفخ معطاراً

لله أعطافك من خوطةٍ وحبذا نورك نوّار(10)

نلاحظ في هذين البيتين ، أن شغف ابن خفاجة بذكر الجنان والرياض جعله يحمل لقب أبي الجنان ، فإذا وصف المرأة نابت نضارة الطبيعة عنها رامزة إليها ، فشبّه أعطاف المرأة بالغصن وسرق نورها من النوار ، وعطرها من الأزهار البيضاء .

ويعد معظم شعراء الأندلس من شعراء الطبيعة ، فكل منهم أدلى بدلوه في هذا المجال إما متغنياً بجمال طبيعة الأندلس أو واصفاً لمجالس الأندلس والطرق المنعقدة فيها ، أو واصفاً القصور والحدائق التي شيدت بين أحضان الطبيعة ، ولذلك كل شعراء الأندلس ممن وصفوا الطبيعية ، ويُعد الشاعر ابن خفاجة الأندلسي المقدم بين هؤلاء الشعراء إذ وقف نفسه وشعره على التغني بالطبيعة لا يتجاوزها وجعل أغراض شعره الأخرى تدور حولها .

وفي شعر الطبيعة عند ابن خفاجة اتصال بين الموصوفات وبين نفس الشاعر ، وعاطفته ، وتمازج بين كثير منها وبين رؤيته في الكون ، وموقفه من الحياة .

فالشاعر يتعاطف مع ما يصف ، وكثيرا ما ينقل إلي القارئ أحاسيسه بجزئياتها ووقائعها ،مما يجعل بعض معطيات الطبيعة سبيلا إلي مشاركة وجدانه ، وتصوّر ذاته ومن قصيدته التي اشتهرت بعنوان وصف الجبل ، وقصيدته في وصفه القمر ، فقد قال في قصيدته الأولي:

أصخت إليه وهو أخرس صامتٌ فحدّثني ليل السرُّى بالعجائب

وقال ألا كم كنتُ ملجأ فاتك وموطن أواهٍ تبتل تائب

وكم مرّ بي من ملوجٍ ومُؤدِبٍ وقال بظلي من مطي وراكب(11)

ويقول في الثانية :

لقد أصخت إلى نجواك من قمرٍ وبت أدلج بين الوعي والنظر

لا أجتلى لُمحاً أعي مُلحاً عدلاً من الحكم بين السمع والبّصرِ(12)

فقد وجد الشاعر في الجبل إنساناً ذا تجارب يتحدث بما جرى له ، وكان معه من أحداث الزمان فهذه القصيدة تمنحنا نفحة جديدة للشعر الأندلسي هي هذه المشاركة في العواطف التي يشعر بها المتأمل لسحر الطبيعة وما يعتريه من رهبة أو طرب وإعجاب.

ففي هذه القصيدة استطاع ابن خفاجة أن يناجي الطبيعة على نسق جديد لم يعهده الشعر العربي القديم ، فأشرك النفس الإنسانية بسر الطبيعة.

ووجد في القمر عِبَراً كثيرةً إن لم ينطق بها بلسان المقال فقد عرضها على الواعين من الناس بلسان الحال .

إذاً فقد وصف الشاعر الطبيعة بجميع مظاهرها ومباهجها فوصف الطبيعة الصامتة برياضها وأشجارها وأزهارها وأنهارها وجبالها ومفاوزها وسمائها ونجومها وما يتصل بذلك كله من نسيم ورياح وأمطار ، وكان الشعور الغالب على هذا الوصف المرح والبشر إلا ما كان من أمر وصفه للجبل إذ ساده التأمل والنظرة الحزينة .

كما أنه وصف الطبيعة أيضاً الحية كالفرس والذئب و بعض الطيور ، وهكذا فقد كانت الطبيعة عند ابن خفاجة مسؤولة عن حواسه ، ولم يستطع أن ينساها حتى في أغراضه الأخرى .

فتوثقت الصلة بينه وبينها فأخذ يشعر بالبشر يحيط به عندما يحل في مغانيها وإذا بها ذات جمال ودلال وبهاء ، فلنسمعه يصفها وقد اختالت زينة وبهجة وبدت تشارك الغانية الفاتنة في جمالها **ويقول في ذلك** :

وكمامة حدر الصباح قناعها عن صفحة تندى من مدرار

في أبطحٍ رضعت ثغور أقاحه أخلاف كل غمامة مدرار

نثرت بحجر الأرض فيه يد الصبا دُرَرَ الندى ودراهم النوار

وقد ارتدى غصن النقا وتقلدت حلى الحباب سوالفُ الأنهار(13)

فالشاعر ينظر إلى الطبيعة نظرة محب، والأبيات السابقة تمثل نفسيته المحبة التي يتورعها جمال الطبيعة وجمال الإنسان .

ثانياَ- الروضيات :

إن موضوع الروضيات يختلف عن باقي موضوعات الطبيعة من حيث طبيعته ، ولطبيعته المختلفة اختلف سبب الحديث عنه بالنسبة للشعراء ، فالدافع إلى الحديث عن الصيد (الطرديات) مثلا ، قد يكون هواية وقد لا يكون ، وأياً كان توجيه ذلك فلن يخلو من الرضوخ إلى نداء المعدة التي تسوي نداءاتها مع نداء واحد من نداءات النفس البشرية لا سيما الإحساس بطعم الجمال .

يرى الخفاجي الأندلس كلها جنة خلد لا يختار بديلاً عنها لو خير ، ويخاطب كل أندلسي بالا يخاف سقر فهي لا تدخل بعد جنة الخلد :

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار

ما جنة الخلد إلا في دياركم وهذه كنت لو خيرت أختار

لا تتقوا ، بعدها أن تدخلو صقراً ، فليس تدخل بعد الجنة ، النار(14)

ولا تقل شهرة في أدبنا العربي أبيات الخفاجي التالية عن التي سلفت :

إن للجنة بالأندلس مجتلى حسن وريا نفس

فسنا صبحتها من شنب ، ودجى ليلتها من لعس

فإذا ما هبت الريح صبا ، صحت ، وأشواقي إلى الأندلس(15)

فالأندلس – كما ترى فيما صورها الشاعر – جنة حسنها حسن يروي النفوس العطاش ، وضوء صبحها وسواد ليلها ابتسامة رسمت على ثغر جميل جمع بين ابيضاض في الأسنان وسمرة في الشفاء مستحبة ، ولافت للنظر جمعُ الرجل بين الروض ورياح الصبا في مواضع كثيرة من شعره كالذي سبق و يترك للقارئ ملاحظة ذلك من السياق العام للحديث .

انظر إليه – حتى تطمئن – حيث يمدح أحدهم فيجعل منه أرجا تعطرت به الربى ونسيماً يبل به على عطش أو شمّ :

يا نشر عرف الروضة الغناء ونسيم ظل السرحة الغيناء

هذا يهب مع الأصيل عن الربى أرجا ، وذلك عن غدير الماء(16)

فالنسيم ، والعطر ، والماء ، والخضرة ، كلها تعبر عن الحياة في أجمل صورها ، لقد انطبعت الطبيعة الهادئة عند الخفاجي بما فطر عليه ، فهو بما يفضي به من أوصاف يعبر عن أكثر ما يجده في نفسه ، ولولا أنه ينظر إلى الطبيعة نظرة فيها مادية لكان أفضل .

ولكن الخفاجي يفرح ويرى الروض كذلك إذا تسنى له التمتع به ، والصبا من لوازمه عنده :

واربع على حكم الربيع بارجع هزج الندامى - مفصح الأطيار

نثرت بحجر الروض فيه ، يد الصبا ذرر الندى ودراهم الأنوار

وهفت بغريد هنالك ، أيكة خفاقة بمهب ريح عرار(17)

أما إذا لم يتسن له التمتع بتلك الرياض ، فإن الحزن يستحوذ على نفسه حتى يرى جرية جداول تلك الرياض بكاء عليها ، وشدو طيورها نياحاً :

ومرتبع ، حططت الرحل منه بحيث الظل ، والماء القراح

تحرم ، حسن منظره ، مليك تخرم ملكه ، القدر المتاح

فـــــجرية ماء جدوله بكـــــاء عليه ، وشدو طائره نياح(18)

وتورد بعض المراجع أن الخفاجي " حينما يعجز ... عن بعث الحياة والجدة في موضوعاته يجنح إلى إضفاء رونق الألوان الصارخة عليها لشغل القارئ وإلهائه بإشاعات الأحجار الثمينة واليواقيت النادرة ... " [19]

وله أحياناً صور تبدو مشتتة يشوبها الغموض فكيفما تقلبها لم يبد لك فيها تصور واضح ، فها هو يصف نارنجا في أغصانه يقول إنه متأصل في روض، الحزن والمقابلة التي في البيت الثاني تجعل الصورة مدلهمة ،والبيت الثالث يبدو فيه أثر التعمل دون دقة حيث الشمس ثغر أبيض ناصع والماء مقلة زرقاء تنظر :

ومحمولة فوق المناكب عزة لها نسب في روضة الحزن معرق

رأيت بمرآها المنى كيف تلتقي وشمل رياح الطيب كيف تفرق

يضاحكها ثغر من الشمس واضح ويلحظها طرف من الماء أزرق (20)

ولو أنه ترك البيت الأول يتيماً لكان أفضل من حاله الآن بعد أن أفسده بما بعده .

ولو أنه سار في شعره على شاكلة الأبيات التالية التي لا تخفى فيها البهجة والبشاشة التي أفاضها على الرياض لكان الأمر مختلفاً :

ياهزة الغصن الوريق وبشاشة الروض الأنيق

أأتتكما بشرى بسقيا أم سلام من صديق

فهززت من عطف ند وسفرت عن وجه طليق(21)

ثالثاً -الزهريات :

" الزهر عيون الروض كما يقول القدماء " وتستيقظ هذه الأحداق من سباتها مع تباشير الربيع ، فكأن الخالق سبحانه لم يرد للطفها إلا ألطف الفصول :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقد نبه النوروز في غلس الدجى أوائل ورد كن بالأمس نوما[22]

واعتاد الشعراء أن تستميل هذه العيون قلوبهم ، وتشاركهم حتى في أحزانهم :

نلهو بما يستميل العين من زهر   جال الندى فيه حتى مال أعناقا

كأن أعينه إذ عاينت أرقى   بكت لما بي فجال الدمع رقراقاً

ورد تألف في ضاحي منابته   فازداد منه الضحى في العين إشراقاً(23)

وللزهر وظيفة أخرى عنده ، وهي تكمل صورة ارتآها كتصويره للنهر المتعطف كالسوار والزهر يحفه كما تحف النجوم بالمجرة :

متعطف مثل السوار كأنه   والزهر يكنفه مجر سماء(24)

ومن ذلك أيضا قوله يصف مجلساً يأنس فيه بأصدقائه :

والنور مبتسم وخد   الورد مخطوط النقاب

يندى بأخلاق الصحاب   هناك ، لا يندى السحاب(25)

وفي أخرى يعرض لذكر مجموعة من الأزاهير في بيت واحد بعد أن نذكر المدام وبعض ما يتعلق بها

وليل ، تعاطينا المدام ، وبيننا   حديث ، كما هب النسيم على الورد

نعاوده ، والكأس تعبق مسكه   وأطيب منها ما نعيد وما نبدي

ونقلي أقاح الثغر ، أو سوسن الطلي   ونرجسة الأجفان ، أو وردة الخد(26)

ومن أجمل ما قال في الزهر ما قاله في ريحانة معشوقة ، فيهيم بها طرفا ومعطساً ، ويكلف بها حبا ، حتى يجعل لها من جفنه مكرعاً ترتوي منه ومن راحته منبتا خصيبا :

ومعشوقة الحسن ممشوقة   يهيم بها الطرف والمعطس

لها نضرة سمتها نظرة   وتكلف ، بالأنفس ، الأنفس

فمن ماء جفني لها مكرع   يسيح ومن راحتي مغرس(27)

رابعاً - الثلجيات :

لم يحفل ديوان شعرنا القديم بالحديث عن الثلج ، مع أن باب الحديث عنه قد فتحه الشعراء من أمثال الفرزدق الذي ذكر في شعر مدح به الخليفة يزيد بن عبد الملك حيث قال :

مستقبلين شمال الشأم تضربنا   بحاصب كنديف القطن منثور

على عمائمنا يلقي وأرحلنا   على زواحف تزجى مخها رير (28)

والغريب أن شعراءنا القدامى لم يتوسعوا في هذا ، فلا نكاد نجد في شعرهم حديثاً مفصلاً عنه حتى منتصف القرن الثالث الهجري .

إن أول من أنشأ شعراً في الثلج في الأندلس هو ابن خفاجة ، فهو ذات ليلة غطت سماءها السحب الدهماء يرى الثلج وقد نقط وجه الثرى ، وكسى الغصون حتى انحنت ظهورها ، ثم رأى أن كل شيء في سواد الليل وقد غطاه بياض الثلج أشبه بالشيب فجعل للغصون هاماً وللربى نواصيا في قوله :

ألا قلصت ذيلها ليلة   تجر الرباب به هيدباً
وقد برقع الثلج وجه الثرى   وألحف غصن النقى فاحتبى(29)

خامساً - المائيات :

والمائيات حديث الشعراء عن الماء ، ولكنه بطبيعة الحال يختلف باختلاف المعطيات ، ففي الجاهلية كان أهم مصدر للماء هو المطر ثم الغدران والبئر التي لا تعمر طويلاً ، ولكن العصر الأندلسي عرف كثيراً من هذه المائيات .

إن ابن خفاجة تفيأ ظلال الأندلس بين أمواه الجداول والأنهار ، فلم يعن بالأثر النفسي الذي كان يجب أن تحدثه هذه المائيات في وجدانه ، فضلا عن أنه لم يشغل قصائد أو حتى قطع كاملة في الحديث عن نهر معين أو بركة أو ما شابه .

ولعل الصورة المنعكسة على لجة المرآة ، أو صفحة الغدير تكون أجمل بكثير مما يخوض فيه ، لما للمحاكاة من إثارة للوجدان ، فبماذا تخرج من تشبيهه لنهر منحدر إلى قراره بالسيف الموجه نحو درع ؟

وماء مسيل سائل لقرارة   فبينا ترى منه حساما ترى درعا (30)

أما إذا اقترن بمأساة يعانيها فإن الأمر يختلف ، فتتدخل العاطفة فوراً ، ومأساة الخفاجي ترتبط بشيء يؤلمه نفسه ، فها هو – مثلاً – يبكي شبابه فيتذكر نهري جزيرة وملتقى فيقول :

بين شقر وملتقى نهريها   حيث التقت بنا الأماني عصاها(31)

ولما ذكر المطر تظهر عاطفة لا تلحظها في مائياته الأخرى ؛ لأن هذا الجو الجهم يرتبط بشيء آخر من نفسه بمكان ، إنها الخمرة ، ولعل أفضل ما يمثل ذلك قوله :

وأدهم من جياد الماء نهد   تنازع جله ريح رخاء
إذا بدت الكواكب فيه غرقى   رأيت الأرض تحسدها السماء(32)

الخاتمة :

توصل الباحث إلى مجموعة من النتائج التالية :

1)عُرفَ من شعر ابن خفاجة أنه شاعر مجدد ومقلد في آن وحد وهو من أبرز الشعراء الوصّافين.

2) اهتم ابن خفاجة بموضوع الصياغة الفنية والحرص الشديد على النغم الموسيقي ونصاعة الأسلوب وكل ما يتصل بالأسلوب وما يمت إلى البيان العربي بصلة ، وقد ساعده على النجاح في هذا العمل قدرته الفائقة على إتقان اللغة وتمكنه منها تمكنا عجيبا ، وتذوقه لمظاهر الطبيعية من حوله وترجمة أحاسيسه بطريقة بارعة.

3) كان ابن خفاجة في قصائده برعاً في المقابلة بين الجمل والعبارات وما يترتب على ذلك من المحسنات البديعية والصورة الفنية خاصة التشبيه .

4) استغل الشاعر ثقافته في اختيار ألفاظه ومعانيه فجاءت عربية فصيحة بعيدة عن الغرابة والتعقيد والابتذال ، مع حرصه الشديد على اختيار الألفاظ ذات الموسيقية الوضاحة لذلك فقد جاءت معانيه واضحة متسلسلة ومنسجمة مع أغراضه الشعرية خاصة الوصف إلى حد بعيد .

5) عاطفة ابن خفاجة كانت شاملة سريعة الانفعال والتأثر بالطبيعة ، فقد جاءت عاطفة قوية وإنسانية ، ذلك أنه تميز بسعة الأفق والثقافة الواسعة.

هوامش البحث :

(1). علي محمد سلامة ، الأدب العربي في الأندلس ، القاهرة ، الدار العربية للموسوعات ،1989 ،ص393.

(2) المصدر نفسه ، ص 349.

(3). ديوان ابن زيدون ، تحقيق علي عبد العظيم ، القاهرة ، مكتبة النهضة ، ط1، 1957م ،ص58.

(4).عبد الرحمن جيدر ، ابن خفاجة الأندلسي ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ط2، 1981 ، ص166.

(5). سيد نوفل ، شعر الطبيعة في الأدب العربي ، القاهرة ، دار المعارف ، ط2 ، (د.ت) ،ص211.

(6). ميشال عاصي ، الشعر والبيئة في الأندلس ، مرجع سابق،ص177.

(7).المرجع نفسه ،ص ،171.

(8)ديوان ابن خفاجة ، ص، 121.

(9).جودت الكابي ، في الأدب الأندلسي ، القاهرة ، دار المعارف ، ط1، 1960، ص231.

(10)ديوان ابن خفاجة ، ص، 251.

(11)ديوان ابن خفاجة ، ص، 61.

(12)ديوان ابن خفاجة ، ص، 78.

(13)ديوان ابن خفاجة ، ص، 181.

(14)ديوان ابن خفاجة ، ص، 181.

(15)ديوان ابن خفاجة ، ص، 201.

(16)ديوان ابن خفاجة ، ص، 21.

(17)ديوان ابن خفاجة ، ص، 195.

(18)ديوان ابن خفاجة ، ص، 151.

(19). جودت الركابي ، مرجع سابق ، ص211.

(20)ديوان ابن خفاجة ، ص، 163.

(21)ديوان ابن خفاجة ، ص، 169.

(22). ديوان ، البحتري ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، القاهرة ، دار المعارف ، 1963 ، ج2 ، ص211.

(23)ديوان ابن خفاجة ، ص، 164.

(24)ديوان ابن خفاجة ، ص، 21.

(25)ديوان ابن خفاجة ، ص، 136.

(26)ديوان ابن خفاجة ، ص، 133.

(27)ديوان ابن خفاجة ، ص، 140.

(28) ديوان الفرزدق ،ص 230.

(29)ديوان ابن خفاجة ، ص، 170.

(30)ديوان ابن خفاجة ، ص، 172.

(31)ديوان ابن خفاجة ، ص، 75.

(32)ديوان ابن خفاجة ، ص، 175.